نص المحاضرة التى ألقاها

الأستاذ عبد الرازق حمدة

بالنادى مساء يوم الخميس ١٤ يونيو سنة ١٩٣٦

سيدى الرئيس :

أساتذتى الأفاضل وإخوانى الأكرمين .

أشكر لنادينا تلك الفرص السعيدة التى يهيؤها لنا لنتلاقى ونتحدث بعضنا إلى بعض أحاديث لانعرض فيها لأحد بسوء ولاتذكر أحدا بما يكره ، وليست من لهو الحديث الذى يضل الناس بغير علم . وإنما هى أحاديث دائرة حول خدمة الدين ولغة الدين .

ولا أخفى عليكم أنى كنت قد أعددت لحضراتكم شكرا جزيلا على تفضلكم بالحضور لسماع حديث عن الخرافات مضحين بوقتكم . ولكنى نسيت ما أعددت ، وما أنساه إلا ظرف أستاذنا الرئيس الكريم وجميل ثنائه على ، حتى أخجل تواضعى . وفوت على فرصة عظيمة أشكر فيها للاخوان حسن تشجيعهم .

على أنى أرجو أن يكون فى حديثى سرور لكم وإمتاع . فقد أعددته غير مسبوق إليه فى لغتنا ، ورجائى أن يوفقنى الله فى عرضه عليكم كما وفقنى فى كتابته . وهو ولى التوفيق .

الخرافات (Fables)

نقصد بهذا العنوان مايسمى بالانجليزية fables وبالفرنسية Fables وهى « قصص أدبية من النثر أو الشعر فيها عنصر التمثيل ، ومثلوها شخصيات غير عاقلة من البهائم أو الطير أو الجماد ؛ تبدو فيهم دائما طبيعة الانسان ، (ويقصد منها التعليم أو الامتاع واللهو) ، باطن هذه الخرافات الحكمة ، وظاهرها لهو وإمتاع .

ومن الممكن أن نطلق عليها « الخرافات » فقط ، بدلا من الحكايات الخرافية : وقد سماها ابن النديم كذلك فى الفهرست إذ عقد فصلا سماه : « باب الأسمار والخرافات » . ومثل للأول بقصة ألف ليلة وليلة . وللثانى كليلة ودمنة . وكلمة « خرافة » الآن أوسع معنى ، إذ تشمل إلى جانب القصص السابق وصفها ، كل مالا أساس له من العقل أو الدين من عقائد وعادات ؛ ولكن الاستعمال كفيل بتخصيصها بالمعنى الذى شرحته آنفا .

أما كلمة « خرافة » فمأخوذة من اسم شخصية عربية مشكوك فى وجودها ، وصاحبها رجل اسمه خرافة . يقال إن الشياطين استهوته فى الأرض وغاب عن قومه زمانا ثم عاد إليهم وحدثهم أحاديث بعيدة عن المعقول . فكذبوه ثم شبهت بأحاديثه كل الأحاديث التى هى بعيدة الاحتمال . وفى لسان العرب مايؤيد هذه الكلمة ترجمة للكلمة الإنجليزية أو الفرنسية .

أما هذه الحكايات فلها علامات مميزة لها ؛ منها ، أن عالم الحيوان الذى تستمد منه أشخاصها لابد أن يحتفظ بحقيقته وغرائزه فى القصة . ومنها أن يركب صاحب الحكاية فى الأبطال عقولا وألسنة من عقول الناس وألسنتهم لتفهم وتفصح عن أغراضها . ولابد من اشتمال هذه الحكايات على كلا النوعين ثم لابد من أن يكون مغزاها عاما ، ينطبق على كل الأزمان والأمكان .

نشأتها الأولى :

عرف الانسان الأول هذا النوع من الحكايات ، ومن السهل أن نفهم وجودها عنده . فقد كان يعيش عيشة سهلة ساذجة . وكان عقله بسيطا ساذجا ، وكان قريبا من الحيوان فى تفكيره ومعيشته ، وكان يساكنه ويتصل به اتصال نفع أو خوف . فبعض الحيوان يؤدى له خدمات مهمة ضرورية وبعض غرائز الحيوان عجيب مدهش حتى فى عصور الحضارة والمدنية ، فلا غرابة إذن أن يرى الإنسان الأول نوعا من المساواة بينه وبين الحيوانات ، وأن

يرى فيها أنصاف أناسى . وأن يتصور قدرتها على القول والفهم والتمثيل، وأن يصوغ ذلك فى قالب حكايات .

ثم تطور الإنسان . ونما عقله ، وزادت معرفته بالحيوان وغرائزه.والجماد وخواصه . فزاد إكباره لهذه الغرائز والخواص ودهشته منها ، وزادت تجاربه فى الحياة ، ودقت ملاحظته للأخلاق عامة . فبعثه ذلك إلى صوغ تجاربه . وملاحظته فى قالب قصص ممتع هو الحكايات التى على ألسنة البهائم والطير والجماد ، وضمنها الحكمة البالغة ، والرأى الصواب ، والمغزى الخلقى القويم ، وأصبحت لهذه الحكايات على مر الزمن قيمة جدية ، وفائدة عظيمة :

وقد وجد من هذه الحكايات نوع على ألسنة الجماد والزهر يفسر بعض مظاهر الطبيعة . وهو تفسير فلسفى ساذج ، فى الأمم القديمة ، كالفرس واليونان والمصريين ، ولكن هذا داخل فى دائرة الأساطير .

ويلاحظ بوجه عام أن مايختار من عالم الحيوان هو أذكاه كالقردة والفيلة، أو أنفعه كالثور والحمار ، أو آلفه ، كالقط والكلب ، أو مايمتاز بصفة ظاهرة كالثعلب لمكره ، والنمل لصبره ، والنحل لنظامه ونظافته .

أنواعها :

الحكايات الخرافية بحسب البيئة التى نشأت فيها نوعان : غربية وشرقية أما الغربى منها فقد وجد من عنى بتاريخه كل العناية من علماء الغرب . وأما الشرقى فقد أجهدت نفسى رجاء أن أكشف عن حقيقته وقيمته وأجمل تاريخه فى هذه الصفحات القليلة العدد .

والآن أبدأ بالكلام عن النوع الأول :

(١) الخرافات الغربية :

ليست الخرافات الغربية سابقة فى الوجود على الشرقية . ولا معاصرة لها ، وإنما هى وليدتها ، ومن المؤكد أن الخرافات جاءت إلى اليونان من آسيا

الصغرى ، واشتهر السوريون بأنهم مبتدعوها ، أو ناقلوها من الشرق الأوسط إلى اليونان ، والإغريق الذين استعمروا آسيا الصغرى هم آخر مرحلة انتقلت فيها — القصص التهذيبية الرمزية من الهند إلى بلاد الاغريق .

وقد زاد اليونان على مانقل إليهم ، ولكن هناك أصلا مشتركا للخرافات الهندية والاغريقية هو الحكم الطبيعية . أو الثروة الموروثة من الروايات والتقاليد أو من الأساطير والمعتقدات التى حملها معه الجنس (الهندى — الآرى) النازح من أواسط آسيا إلى الغرب . وكان منه الاغريق . وقد انتفع هؤلاء بما نقل إليهم . وزادوا فيه . وحولوه بعقولهم الناضجة وخيالهم القدير على الاختراع . وصبغوه بصبغة قومية . ضيعت معالمه الأولى .

وتمتاز الخرافة الغربية بقصرها وسهولتها . وخلوها من الاستطراد .

بعد هذه السطور القليلة أعرض لشخصية عظيمة من واضعى الحكايات هى شخصية Esope إيسوب :

ايسوب

ولا يعرف عنه شىء على وجه التأكيد ، ويقال إنه رقيق يونانى عاش فى سامس Samos حوالى القرن السادس قبل المسيح . وهو الذى «أقلم» الخرافة اليونانية . وجعلها سهلة طبيعية محبوبة إلى الناس . ويرجع إليه الفضل فى الاختصار والسهولة اللذين عرفت بهما الخرافات فى الغرب بعد ذلك .

واسمه يشبه اسم هومر ، فى أن كلا منهما مبتدع لنوع عظيم من أنواع الأدب الغربى ، فهومر مخترع الملاحم ، وإيسوب مخترع الخرافات ، وقد كثر الكلام حول وجودهما التاريخى فأثبته قوم وأنكره آخرون ، أما هيرودوت فيثبت وجود إيسوب . ولكن وجوده التاريخى لايؤيد صحة مانسب إليه من الخرافات ، ولا أنه هو كاتبها . فمن الجائز أن يكون قد أنشد بعضها وعرف عنه ثم جمع من بعده مضافا إليه مازاده المقلدون والمنشئون ، وجمع ذلك كله

منسوبا إليه فى مجموعة واحدة .

وبعده بثلاثة قرون ألف رجل اسمه ديمتريا س فاليرDemetrinus Phalére مجموعة (من الخرافات) جاء بها من الخرافات المصرية ، ولكنها ضمت إلى المجموعة الأولى ونسبت إلى إيسوب .

وجاء من بعده شخص اسمه بابرياص Babrius حوالى خمسين سنة قبل المسيح ، فنظمها شعرا متينا ، وقلده من بعده كثيرون فى اليونان والرومان من أشهرهم دوشياص ماجيستر « Dosiirpus Maqister »فى عهد هادريان وأفيانوس Avianus فى عصر تيودوس Tneodose .

أما الخرافات اللاتينية فليست إلا تقليدا لليونانية ، وقد نظمها Phedre شعرا ، وهو من الشعراء الذين عاشوا فى زمن أغسطس Auqust ولا يعرف عنه إلا القليل ، وقد جهلته القرون الوسطى ، وأعرضت عن خرافاته حتى كشف عنها فى عصر النهضة ، وكان عددها مائة وسبعا وعشرين حكاية ،

وبعد زوال المجد الرومانى ، اختفت هذه الحكايات ، وحفظت بجمرعاتها فى الأديرة « الديورة » وأشهر ماعرف منها هو المجموعة المسماة روميولص Romulus وهى ليست إلا حكايات Phedre منثورة .

فى العصور الوسطى

نهضت فى العصور الوسطى أمم متعددة فى الغرب ، وتجددت الأفكار والمعانى فى تلك الأيام ، وتجددت الحكايات الخرافية كذلك وأخصبت ، واستحدث بعضها وأعيدت كتابة القديم منها ، وعرفت الحكايات الشرقية الخصبة طريقها إلى أوربا عن طريق عرب إسبانيا والحروب الصليبية . وزيد فى الحكايات المأخوذة من كليلة ودمنة ، ونشأت حكايات جديدة مأخوذة من التجارب ومن عمل الخيال حتى كانت هناك فى هذه العصور أنواع ثلاثة متميزة من الحكايات الخرافية ، أولها من النوع القديم « الكلاسيكى » الذى جاء من اليونان والرومان

وثانيها من الشرق عن طريق العرب فى إسبانيا ، والحروب الصليبية ، والثالث مبتدع ، وامتاز النوع الشرقى فيها بوجود الشخصيات الغريبة ، والحوادث ، والأخلاق ، وقد اختلطت أحيانا بغيرها من النوعين الآخرين فى مجموعة واحدة.

وكثير من خرافات القرون الوسطى لا يعرف قائله ، ولا جامعه ، اللهم إلا ماينسب إلى مارى الفرنسية Marie oF France التى عاشت فى انجلترا وبلجيكا حوالى منتصف القرن الثالث عشر فى عصر هنرى الأول الإنجليزى ، وكان للحكايات سوق رائجة فى هذه العصور ، وعرفها الناس على اختلاف درجاتهم مابين منشىء لها ومعيد لما عرف منها ، وكانت محببة إلى الجمهور الأمى ، وكان طريقها إلى القلوب ممهدا .

وفى القرن السادس عشر كسدت سوقها إلا عند المتعلمين . غير أنها لم تلبث أن عادت إلى الحياة فى صورة جديدة ، فذيلها الكتاب بأسمائهم ، وخلت من التعقيد والاستطراد ، وأصبحت قصيرة ، وسميت الحيوانات بأسماء ، أعنى أنها خلت من الأثر الشرقى ، وكان الفضل فى كل ذلك للإيطاليين .

حوالى ذلك الوقت نبذت إسبانيا التعصب جانبا ، وأظهرت تفضيلها للخرافات الشرقية على الوطنية ، وآثرت ماورثته من العرب الذين استعمروها وعمروها مئات السنين .

وقد حدثت فى فرنسا نهضة تشبه نهضة إيطاليا ، واتخذ كتاب الحكايات من سبقوهم مثالا لهم . غير أن الضعف لحقهم فى أوائل القرن السابع عشر ، إذ انصرفت القوى إلى شعر البطولة والسياسة ؛ حتى جاء لافنتين فنهض بالخرافات نهضة قوية .

جين دى لافنتين La Fontaine

ولد فى يوليه سنة ١٦٢١ فى حصن تييرى Chateau Tierry فى بلدة

لا بارى La Barie على المارن . وهو أكبر أولاد شارل لافونتين رئيس المياه والغابات فى دوقية تيرى .

وكانت أسرته غنية ، وبيته بيت علم وأدب ، فلا غرابة أن يدرس الآداب القديمة ، وأن يكون له ذوق فى الشعر . وكانت الأرستقراطية تتودد إلى الطبقة الوسطى ، طبقة العلم والأدب فى أيامه ، فساعده ذلك كما ساعد راسين وبوالو وفولتير .

وقد دخل دير سانت ماجلوار Saint Macloire فى العشرين من عمره غير أنه ضاق ذرعا بالحياة هناك ، فعاد إلى الدنيا .

واتصل بفوكيه العظيم ، وزير مالية فرنسا فى عصر لويس الرابع عشر .

وقد ورث محبته للشعر عن والده ، فقرأ كثيرا ، وأحب الريف ، وغذى خياله منه ، وقرأ لشعراء فرنسا وغيرهم من القدامى أمثال هوارس وفرجيل .

وعرف الحكايات الهندية ، وكليلة ودمنة ، وكثيرا غيرها من الحكايات الشرقية ، التى نقلت فى العصور الوسطى ، وعرف المشهور من حكايات أفيانوس وبابرياس ، وإيسوب وفدر ، وقرأ ما نسب إلى الطليان والفرنسيين ، وأحب رابليه « Rabelais » ومارو « Maror » وكل كتاب الحكايات فى القرن السادس عشر ، وأضاف إلى ذلك كله قوة إبداعه . وقدرته على نسج الشعر الرصين .

Les Fables des la Fontaine (خرافات لافنتين)

أهم ما تمتاز به على وجه الإجمال : أنها مصوغة فى قالب قصة ، فيها حوار أو حديث بين الأبطال ، وفيها الشخصيات مصورة بدقة ، وفيها المغزى الخلقى ، والانسجام والترتيب فى سرد الحوادث ، وفيها تنويع ، وتجديد ، وقد لبس الشاعر لكل حكاية لبوسها وصور أبطالها من الحيوان أو الطير تصوير عالم بطباعها ، وأبرز المغزى الخلقى أو السياسى أو الدينى أو الفلسفى واضحا فيها ،

ولكل هذه الميزات يكاد يعتبر لافنتين سيد من كتب الحكايات الخرافية فى العصور الحديثة . أو هو سيدهم كما تقول دائرة المعارف البريطانية ، تحت عنوان « Fables ».

وننتقل بعد هذا العرض القصير إلى النوع الثانى الذى يعنينا أكثر من غيره ، وهو :

(٢) الخرافات الشرقية :

قلنا إن الخرافات الشرقية أقدم من الغربية فى الوجود ، وأقدم الخرافات الشرقية هى الخرافات الهندية ، وأقدم مابين أيدينا منها هو المجموعة المسماة (الفصول الخمسة «Lecinq Chafptres Pantcha tantara) ، ويرجع تاريخها إلى القرون المسيحية الأولى ، ولكل فصل منها عنوان مستقل مثل حرب البوم والغربان «La guerre Des Cerbeaux et des Hilboux» وشراء الأصحاب « L'aquisition des amis ».

ومؤلف هذه « الفصول الخمسة » — كما فى النسخة السنسكريتية — هو فيشوكارمن « Vishocarman ».

ولكن من أين جاء اسم بيدبا أو بلباى Bidpai أو « Bilpai » الذى تنصرف إليه الأذهان عند مايذكر اسم الخرافات الشرقية ؟

فى القرن السادس ترجمت الفصول الخمسة إلى البهلوية ، وهذه الترجمة غير موجودة الآن . وفى القرن الثامن الميلادى — الثانى الهجرى — ترجمت هذه الفصول إلى العربية تحت عنوان « كليلة ودمنة » .

كليلة ودمنة :

والذى ترجمه هو ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، وقد سمى الكتاب باسم بطلى القصة الأولى فيه ، وكليلة ودمنة ليسا إلا نوعين من أنواع الثعالب ، وقد تخيل مترجمه أن الكتاب من عمل قسيس هندى اسمه « بيدبا » ومعناه

الحكيم أو الفيلسوف — وأنه كان يعيش فى زمن ملك اسمه دبشليم . وكان هذا الملك غاشما ، يظلم الناس ويبغى فى الأرض بغير الحق ، فضاق به ذرع « بيدبا » ورأى من الواجب عليه أن ينصح للملك ، وأن يرده عن ضلالته ، ولكن عاقبته ماتكون ، فكان جزاؤه السجن ، وجزاء أنصاره التشريد . ثم ثاب الملك إلى رشده فدعا بيدبا من سجنه ، واعتذر إليه ، وأمره أن « يضع له كتابا بليغا . . . يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها ، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته » ، فجمع تلاميذه وأخبرهم بأمر الملك واصطفى منهم رجلا ، يملى عليه ويكتب ، « حتى استقر الكتاب على غاية الإتقان والإحكام » ، وسماه « كليلة ودمنة » .

« ثم جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير » . « ورتب فيه أربعة عشر بابا ، ثم قدمه إلى الملك فأكرم مثواه وأحسن جزاءه . وضم الكتاب إلى نفائس كتبه .

نقله الى فارسى :

يحدثنا ابن المقفع أن بيدبا كان يخشى على كتابه من الفرس ، ثم يحدثنا بعد ذلك أن كسرى الفرس أنوشروان العادل سمع بهذا الكتاب فأمر وزيره بزرجمهر بن البختكان أن يختار له من يحتال على نقله من خزائن الهند ، فاختار له (برزويه) المتطبب ، فأنفذه إلى بلاد الهند ، فمكث بها عشرين عاما يتعلم الهندية ، ويتخير واحدا من الرجال يأتمنه على سره ، ويستعين به على قضاء حاجته ، حتى وفقه الله إلى أمين الخزانة الملكية فمكنه من الكتاب ، فنقله ليلا ، ثم عاد إلى بلاده ، فعظمت منزلته عند سيده كسرى ، وأراد جزاءه ، فآثر برزويه بقاء اسمه على الأيام ، وطلب أن يجزى على عمله بتدوين سيرته فى صدر الكتاب ، فأمر الملك وزيره بزرجمهر أن يضطلع بهذا الأمر ، وأن يسعف برزويه بحاجته وطلبته ، وأن يكتب بابا مضارعا لتلك الأبواب فى

الكتاب ، ويذكر فيه خبر برزويه تفصيلا ، ففعل .

وقد اتفق على نسبة هذا الكتاب إلى الهند كل كتاب الغرب تقريبا ، فالأستاذ براون يقول فى الجزء الثانى من كتابه تاريخ الفرس :

« أما أصلها — أصل الترجمة العربية — فهو هندى ، ونقلت إلى فارس فى القرن السادس للميلاد ، فى عهد كسرى أنوشروان ، وترجمت إلى اللغة الفهلوية ، ومنها إلى السريانية والعربية ، ومن العربية إلى لغات كثيرة شرقية وغربية » .

ويقول الأستاذ « نيكلسن Nickelson » فى كتابه تاريخ الأدب العربى « أما ابن المقفع فقد ترجم كتابه من الفهلوية ، وأصل الكتاب فى السنسكريتية ومعناه « خرافات بيدبا ») .

وكذلك كتاب الشرق ، اللهم الا ابن النديم فيما نقله عن محمد بن أسحاق صفحة ٣٠٣ (تحت عنوان باب الأسمار والخرافات) إذ يقول : « قال محمد بن إسحاق : « وكان قبل ذلك — قبل الجشهيارى الذى حاول جمع ألف سمر وخرافة وجمع منها ٤٨٠ ليلة ، كل ليلة سمر تحتوى على خمسين ورقة أو أقل أو أكثر ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم — جماعة ، منهم عبد الله بن المقفع ، وسهل بن هرون ، وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم » وقد استقصينا أخبار هؤلاء وماصنفوه فى مواضعه من الكتاب ، فأما كتاب كليلة ودمنة فقد اختلف فى أمره فقيل عملته الهند ، وخبر ذلك فى صدر الكتاب — كليلة ودمنة — وقيل : عملته ملوك الاسكانية ونحلته الهند ، وقيل : عملته الفرس ونحلته الهند ، وقيل : إن الذى عمله بزرجمهر الحكيم اجزاء ، والله أعلم بذلك .

ويقول ابن اسحق فى المصدر نفسه « أول من صنف فى الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن ، وجعل ذلك على ألسنة الحيوان الفرس الأول ،

ثم أغرق فى ذلك ملوك الأشغانية ، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس . ثم ذلك واتسع فى أيام ملوك الساسانية ونقلته العرب إلى اللغة العربية ، وتناوله الفصحاء والبلغاء ، فهذبوه ونمقوه ، وصنفوا فى معناه مايشبهه » .

أما الكتاب نفسه فله قيمة إنشائية سامية ، وهو مثل صادق تتجلى فيه صفات الخرافات الشرقية من الطول ، والاستطراد ، واستمداد المغزى الخلقى من التجارب العملية ، لامن التفكير الفلسفى . فباب الأسد والثور وهو أول باب فى الكتاب ، يبدأ بالصحيفة الحادية والتسعين ، وينتهى فى الرابعة والخمسين بعد المائة .

والاستطراد ظاهر جدا فى كل القصص . خذ لذلك مثلا ، « باب الحمامة المطوقة » . ساق الفيلسوف قصتها حديثا عن إخوان الصفاء ، كيف يبتدئ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض :

كانت الحمامة مقيمة بأرض سكاوندجين ، ومعها غراب وجرذ ، ومر الصياد ذات يوم ونصب شبكته ، فوقعت فيها المطوقة مع كثيرات غيرها من بنات جنسها ، فأشارت عليهن ، فجمعن أمرهن وطرن بالشبكة ، والصياد من ورائهن حتى يئس فرجع ، أما المطوقة وصاحباتها فقد سرن حتى أتين إلى مسكن الجرذ فسقطن ، وكان له مائة جحر للمخاوف ، فناداته باسمه فخرج ، ثم ابتدأ يسألها عن سبب هذه الورطة فأمرته أن يقرض الشبكة أولا ثم يسأل ، فأراد أن يقرض العين التى هى فيها ، فأبت عليه ذلك ، حتى ينقذ صاحباتها أولا ، وذلك لئلا يدركه الكلال قبل إنقاذها .

كان الغراب قد تبع الحمائم فى سيرهن إلى الجرذ ، فلما رأى نفعه ومعونته فى الشدائد ، رغب فى مصادقته فأبى عليه الجرذ . قائلا : ليس بينى وبينك تواصل ، غير أنه لان أخيرا وقبل صداقة الغراب ؛ وحمله هذا بعد مدة إلى صديقة له من السلاحف ، فلما جاءا قص الفأر عليها قصته ، وسبب بلائه ونكبته

فى طلب المال ، ثم أنس كل منهما إلى صاحبه ، وانضم اليهم ظبي نافر فأكرموا لقاءه ، وأمنوه ، وصاحبهم ، ثم غاب يوما ، فأرسلوا الغراب يستطلع خبره فوجده فى حبائل صياد ، فعاد وأخبر الجرذ والسلحفاة فذهبا لإنجائه ، فما كاد الجرذ ينتهى من قطع الحبالة حتى جاء القانص ، ففر الظبي ، واختفى الفأر ، وطار الغراب ، ووقعت السلحفاة فى يد القانص فربطها ، فاحتال الفأر والغراب والظبي حتى نجوها بحيلة لطيفة .

وقد ختمت القصة بحث الناس على الاقتداء بهذا الحيوان الأعجم ، أما لغتها فهى عالية ، وأمثالها كثيرة ، ومواعظها متمشية مع قصصها الاستطرادية ومغازيها عادية كالتعاون ، والإيثار ، والحذر ممن لا يشاكل ، وفائدة الصداقة عند الشدائد ، ومايجلبه حب المال على صاحبه من ويلات .

أما أبواب الكتاب الآن فهى خمسة عشر ، وكلها تسير على هذا النحو من الطول والاستطراد ووجود الموعظة فى ثنايا القصة صريحة .

هذه خلاصة للكتاب ، أصله وترجمته ، وعلاماته المميزة له وللخرافة الشرقية بوجه عام ، وقد ترجم إلى كثير من لغات العالم حديثها وقديمها ، فترجم إلى الفارسية مرة ثانية ، فى عهد الدولة الغزنوية وقد نظمها فى الفارسية شاعر اسمه روداجى « Rudagi » فى عهد الدولة السامانية .

وقد قفى على أثر ابن المقفع كثير من رجال الأدب فى الشرق والغرب ، فهذا سهل بن هرون أمين خزانة الحكمة عند المأمون ، قد كتب على نظامها كتابا سماه « ثعلة وعفراء » وقد كان شعوبيا فارسيا ، وهو صاحب رسالة « البخل » المشهورة التى كتبها لبعض أقاربه ، وقدمها إلى الحسن بن سهل ؛ فجازاه عليها بقبولها ، ولم يصله [1] وأبان بن عبد الحميد اللاحق قد نظمها شعرا ، وهناك كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية ، وبمجموعات أخرى قليلة

(١) معجم الأدباء صفحة ٢٦١ من الجزء ١١

لغيرهم من الأدباء .

وأما لقمان الحكيم الذى تنسب إليه بعض الخرافات العربية ، مثل ما ينسب بعض آخر منها إلى الفيلسوف بيدبا ، فهو فى نظر مؤرخى الآداب الغربية خيالى مثل بيدبا ، وقد كادوا يجمعون على أنه هو المعروف عندهم باسم «إيسوب» الإغريقى ، للتشابه العظيم بين الخرافات المنسوبة إلى كليهما .

وأما وجهة نظرنا نحن المسلمين فهى أن لقمان شخص تاريخى ، آتاه الله الحكمة ، ويقول ابن جرير الطبرى فى تفسيره : « قال قتادة لم يوح إليه ولم يكن نبيا ، وعن مجاهد أنه كان صالحا ، ولم يكن نبيا ، وعنه ، أنه كان عبدا حبشيا مصفح القدمين قاضيا على بنى إسرائيل ، وأنه كان عبدا حبشيا نجارا ، فأمره سيده أن يذبح شاة ويخرج بأحسن مضغتين فيها فأخرج القلب واللسان ثم أمره أن يذبح شاة أخرى ، ويأتيه بأخبث مضغتين فيها ، فأتاه بالقلب واللسان ، فسأله سيده فى ذلك فأجابه : لم أجد أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا ».

وأما الخرافات العبرية ، فقد وردت فى الكتاب المقدس قصصا على ألسنة الحيوان ، والقصد منها أن توضح العقائد ، وتشرح الواجبات شرحا وافيا ، « وهى المعروفة بالأمثال »

وهذه الخرافات تختلف اختلافا أساسيا عن الخرافات الهندية ، فهى مختصرة اختصارا بليغا ، وفيها قوة وروح استقلالية تخلق فيها الحياة ، وبوساطتها تصل الحقائق إلى العقول واضحة ، وتترك أثرا ظاهرا لا يمحى ، وهذا يبين لنا السبب فى بقائها منذ عهد عهيد قوية ناجحة ، فعالة الأثر .

فى العصور الحديثة :

ومازالت الخرافة تنتقل فى خلال القرون ضعيفة لا يعنى بها إلا القليل ، حتى جاء العصر الحاضر ، ورأينا من شعرائنا من عرف لغة لافنتين ، وأعجب

بخرافاته فاقتبس منها أو ترجمها . ومن أشهر هؤلاء المرحوم محمد عثمان جلال ، صاحب كتاب « العيون اليواقظ ، فى الأمثال والمواعظ » .

وهو كتاب نظم فيه الشاعر مائتى قصة معظمها على ألسنة الحيوان ، وبعضها شعر وبعضها زجل .

وها كم أهم ما يسترعى انتباه القارىء فى هذا الكتاب :

(١) أن شعره من نوع غير جيد .

(٢) على الرغم من هذا نجده خفيف الروح تمتزج فيه العامية بالعربية فيحلو هذا الامتزاج ويخف على نفس قارئه وسامعه .

(٣) يختم كل حكاية بمثال كيفما اتفق ، فتارة يكون عاميا . وتارة يكون عربيا معترفا بعربيته ، وتارة يكون من وضعه .

(٤) يحاول أن يعطى حكاياته صبغة وطنية ، ويجعل حوادثها تقع فى بلاد مصرية أو شرقية ، مع أنها حكايات عالمية ، صفحة (٥٦) الحمار حامل الملح والحمار حامل السفنج . أو يرويها عن علم مشهور من أعلام الدين أو الأدب وقد لا يكون بينهما صلة إلا ضرورة الشعر .

(٥) قربها من الخرافات الغربية فى الخلو من التعقيد والاستطراد . وكثرة الشخصيات ، وذلك لتأثر منشئها بالأصل الفرنسى .

وأسوق هنا الحكايات الآتية برهانا على دعواى :

مثل الحكاية الحادية عشرة فى الثعلب والعنب :

حكاية عن ثعلب مر من تحت العنب
وشاهد العنقود فى لون كلون الذهب
وغيره من جنبه أسود مثل الرطب
والجوع قد أودى به بعد أذان المغرب
فهم يبغى أكلة منه ولو بالتعب

عالج ما أمكنه يطلع فوق الخشب
فراح مثل ما أتى وجوفه فى لهب
وقال هـذا حصرم رأيته فى حلب
والفرق عندى بينه وبين تين العلب
فإن هـذا أكله يشبه لحم الارنب
ولحم ذاك مالح كالضرب فوق الركب
قال له القطف انطلق ثعلب ابن ثلعب
طول لسان فى الهوا وقصر فى الذنب

فالشعر هنا من نوع غير جديد أو « كالضرب فوق الركب » تمتزج فيه العامية بالعربية . وقوله « وقصر فى الذنب » ليس إلا المثل العامى « قصر ديل يا أزعر » ولكنه خفيف الروح يمثل الظرف المصرى ، ويعبر عن المزح الذى عرف به المصريون .

« والحكاية الرابعة والخمسون ، فى الحمار حامل الملح والحمار حامل السفنج » تتجلى فيها عدا ماذكرت محاولة الشاعر أن يصبغ خرافاته بالصبغة الوطنية فيقول :

حمّار بولاق له حمـير وفى البلاد شغله كثير
حمل جحشا حمل ملح قاسى وصار لايرثى ولايواسى
وحمل الآخر بالسفنج وقال سبحان الاله المنجى
فحامل السفنج صار يسعى وحامل الملح النهيق قطعا
وحين أقبلا على المعادى ونزلا الماء ببطن الوادى
امتلأ السفنج صار مثقلا والملح حين ذاب خف محملا
فغطس الحامل للسفنج كغطسة البذرة فى النارنج

... ...

وطلع الملاح وهو ينهق وهكذا رب أسير يعتق
فاصبر على أهوالها ولا تضجر فربما فاز الفتى إذا صبر
وربما جاءك بعد اليأس روح بلا كد ولا التماس

فالحكاية شائعة عندنا وعند غيرنا ، ولم يكن صاحب الحمارين « بولاقيا » ولا ذهب الحماران فى طريق المعادى ، اللهم حين قادهما محمد بك جلال فى شعره من بولاق إلى المعادى ، وأغرق أحدهما فى النيل ونجا الآخر ، ورجع « وهو ينهق » .

ويروى فى الحكاية الخامسة والخمسين.

حكاية عن شجر البلوط نقلتها عن شيخنا السيوطى

والحق أن الشيخ السيوطى لم يأت هنا ، ولم يذكر اسمه إلا لأنه مقترن مع « شجر البلوط » الذى فخر على الفول بعلوه وعظمته فجاءت الريح فكسرت كبرياءه ، وانحنى لها الفول واستوى هو على ساقه بعد ذهابها .

وهناك أديب آخر نظم حكايات ظريفة . وهو إبراهيم بك العرب صاحب كتاب « آداب العرب » ، وفيه حكايات غير الخرافات ، وكل شعرها جيد . وأمثالها التى تختم بها عربية .

وقد نظم المرحوم شوقى بك كثيرا من قصص لافونتين نظما جيدا ، ولكنه لم يوجه همته العالية ، ومقدرته العظيمة إلى الاختراع أو الترجمة فى هذا الباب الواسع من أبواب الأدب

بعد كل هذا العرض الموجز لتاريخ « الخرافات » من الناحية الأدبية أعرج على آثارها فى تربية النفوس فأقول : إن علماء التربية لم يتفقوا جميعا على فائدتها بل رأى بعضهم أنها خطر ، ومنهم روسو الذى قال: إنها غير خلقية ومفسدة للشبان ، وكذلك فولتير الذى وضع قيودا كثيرة عليها.

ولكن جمهور القراء وغير القراء فى كل زمان ومكان قد أحب تلك

القصص وأقبل عليها . واستفاد كثيرا من الأغراض المضمنة فيها ، وسبب ذلك أنها تسلى الكبار والصغار ، وتخرجهم من عالمهم إلى عالم آخر خيالى ، وتحمل إليهم الفضائل على ألسنة مخلوقات أضعف منهم عقلا ؛ فيدفعهم ذلك إلى الإقبال على الفضائل والنفور من الرذائل كى لايكونوا أقل من الحيوان خلقا أو استماعا للنصح . ولا شك أن طريقتها القصصية أخف كثيرا من طريقة التلقين الجافة . ولهذا كانت أعذب موردا ، وأكثر قبولا . وقد شغل سقراط - ومركزه بين المربين عظيم - نفسه بنظم مانسب إلى «إيسوب» . وكذلك « جوته » شاعر الألمان العظيم نظم حكايات الثعلب رينار ، وذلك بلا شك دليل على تقدير المربين لها .

ومما يتصل بالموضوع ويؤيده ماذكره ابن المقفع فى «باب عرض الكتاب» إذ ذكر الغرض من وضع الحكايات الخرافية على ألسنة الحيوان فيقول صفحة ٥٨ .

« ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويحتالون فى ذلك بصنوف الحيل ؛ ويبتغون إخراج ماعندهم من العلل ، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير ، فاجتمع لهم بذلك خلال. أما هم فوجدوا متصرفا فى القول وشعابا يأخذون منها . وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا ؛ فاختاره الحكماء لحكمته ، والسفهاء للهوه ، والمتعلم من الأحداث ناشط فى حفظ ماصار إليه من أمر يربط فى صدره ، ولايدرى ماهو » .

فتلك أغراض العلماء وغاياتهم ، وتلك نظرات الحكماء والسفهاء إلى هذه الحكايات .

أما نصيحته للقارىء ، ونصيحتنا كذلك له ، فهى « أن يعرف الوجوه التى وضعت له ، وإلى أى غاية جرى مؤلفه فيه ، عندما نسبه إلى البهائم وأضافه إلى غير مفصح ؛ وغير ذلك من الأوضاع التى جعلها أمثالا ؛ فإن قارئه متى لم يفعل

ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعانى ، ولا أى ثمرة يجتنى منها ، ولا أى نتيجة تحصل له من مقدمات ماتضمنه هذا الكتاب ، وإنه وإن كان غايته استمام قراءته إلى آخره دون معرفة مايقرأ منه لم يعد عليه شىء يرجع إليه نفعه .

ثم يختم « باب عرض الكتاب » بالسطور الآتية :

وينبغى للناظر فى هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض : أحدها ماقصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان ، تستمال به قلوبهم . . والثانى إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ؛ ليكون أنسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد ، للنزهة فى تلك الصور . والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام ولينتفع به المصور والناسخ أبدا ، والغرض الرابع ، وهو الأقصى ، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة » .

وهذا الاقتباس من ابن المقفع لازم ليوضح لنا أصناف القراء والسامعين للخرافات ، وغرض العلماء من تسطيرها ، ومايجب على القارىء والسامع بإزائها .

ميكى ماوس :

ولم يقصر الغربيون فى استخدام المخترعات الحديثة فى كل شىء حتى فى الأدب ، فقد حاولوا إظهار الخرافات على الستار الفضى ، ونجحت المحاولة نجاحا عظيما ، ولا أظن فيكم من لم يشهد رواية الفأر الشهير « ميكى ماوس » وهو شخصية محبوبة جدا من رواد الخيالة ، رجالا ونساء ، شيبا وولدانا ، ولو كان فى الوقت متسع لتحدثت كثيرا عنها وعن مخترعها « ولت ديزنى » ، وعن مقدار حب الجمهور الأوربى لها . فأكتفى بما خلفته فى نفوسكم من إعجاب وسرور بمشاهدتها وبساطتها وخفة روحها .

وأختم حديثي قائلا : إن مجال القول واسع أمام الأدباء عامة والشعراء خاصة ، ولكن شعراءنا قد انصرفوا عن الجد إلى العبث وعن تسجيل أسمائهم فى سجل الخلود ، إلى المديح الغث المذموم ، الذى لاتدفع إليه عاطفة ، ولا تسيغه لهاة ، ولا يؤيده الواقع . وقد كان أولى بهم أن يسيروا على نهج الشعراء الغربيين الذين أحسوا فى قرارة أنفسهم بالمعانى السامية ؛ ففاضت بها أقلامهم أدبا خالدا ، وسحرا مبينا ؟

عبد الرازق ابراهيم حميدة